

العصية المهدية

للاستاذ عبد الحميد يونس

—•••••—

في هذا الوقت الذي تلمى فيه الحدود الجغرافية نفسها على عتوها وجبروتها ، وتتقارب الجماعات البشرية التي طال اضطراءها حتى أصبح التاريخ الإنساني كله عبارة عن سرد متصل لمشاهد حروبها وأهوال أيامها ؛ بل وفي هذا الوقت الذي تغلب فيه الدعوة إلى العدالة الاجتماعية سائر الدعوات فتعمل على محو الفروق بين الطبقات ، أو على التقريب فيما بينها على الأقل ؛ أقول في هذا الوقت تقوى في مصر عصية خطيرة تخلق طبقات جديدة وتشر الإحن والأحقاد في نفوس الأفراد والجماعات

ومن عجب أن هذه العصية تفرق أولا وقبل كل شيء بين التملين وغير التملين على الرغم من أن المصادفة وحدها جمات المتعلم متملئاً والجاهل جاهلاً ، وكان الأحجب أن يتقارب الإثنان ويأخذ الفاقد من الواجد ، ولا أقول يعطى الواجد الفاقد

وفرت هذه العصية كذلك بين التملين أنفسهم ، فجلتهم طبقات ، واخترعت لهذه التفرقة مراحل وأقساماً ، فهو لاهم أهل الطبقة الأولى ، وهؤلاء أهل الطبقة الثانية ، وأولئك أهل الطبقة الثالثة ... وهكذا

ولم أكن لأملك أن أكتب بأسلوب الناقد الجاد ... إن مجرد الحديث في لغة الجد والنقد عن مثل هذه « الساخر » لهو احتقار للشعر والأدب والنقد ، واحتقار للصحيفة التي أكتب فيها ، وللناس الذين أكتب لهم .

هذه « عملة » لا يجوز أن تمر . فهي استهتار يتجاوز حدود الجراءة ، ولا بد أن يوضع حد لهذه « الساخر » بأية طريقة وإذا كان القانون لا يملك — مع الأسف — أن يعاقب على مثل هذا الاستهتار فيجب أن يرد الناس عن أنفسهم هذا الاحتقار . فليجروا إنساناً على نشر مثل هذا الكلام بمثل هذا الادعاء إلا أن يحتقر نفسه أو يحتقر القراء .

سهر قطب

ولم تكثف هذه العصية الويلة بذلك ، بل راحت تفرق الطبقة الواحدة شيكاً وأحزاباً لا تتماون فيها بينها ، لأن الأحقاد والإحن هي أساس وجودها والباعث على بقائها واطراد نموها . ترى ما هذه العصية الحقاء التي صورتها بهذه الصورة المنكرة ؟ هذه العصية هي التي سميتها « العصية المهدية » ، ولطالما نهيت إليها وحذرت منها ، فلم ياب لها للتنبيه والتحذير أحد ، لأن السكل متهم بها ، منتفع من وجودها ، وعامل على إذكائها .

هذه « العصية المهدية » هي السر فيما تسمعه كل يوم من أن طائفة بعينها ، أو قسماً بعينه يريد أن يسوى بينه وبين طائفة أخرى وقسم آخر في بعض الزايات والحقوق ؛ أو أن أبناء معهد بعينه ينكرون على أبناء معهد آخر ما يضطلعون به من جهد وما يقومون به من عمل ، وكأننا العلم بضاعة يحتكرها أولئك دون هؤلاء ، والقوامون على مرافق هذه الأمة يساعدون أحياناً ، عامدين أو غير عامدين ، على تقوية هذه العصية بتفضيل طائفة من التملين على غيرها ، أو معهد من معاهد التعليم على غيره ، وفيهم من تأخذ عنجهية هذه العصية إلى أبعد مدى ، فيحتكر العلم أو التعليم لأبناء طائفته أو معهده

ولعل من المضحكات أو المبكيات ما روى من أن مصلحة من مصالح الحكومة أرادت أن تتحرى العدالة في اختيار موظفيها لتبرأ من المحسوبية التنشئة في الدواوين وغير الدواوين ، فمقدت امتحان مسابقة تختبر به كفايات المتقدمين ومقدار صلاحيتهم للأعمال التي ستناط بهم وتوكل إليهم ، ولم يكن العمل يتطلب تخصصاً ضيقاً ، وتقدم إلى هذا الامتحان جمع من معاهد شتى ، وانقضت أيام وأعلنت النتيجة ، فإذا الأول من معهد ، والثاني والثالث والرابع من معهد آخر ، فاختار مدير المصلحة الثلاثة دون الأول ، لأنهم من المعهد الذي تخرج فيه ، فهم لذلك دون غيره أصلح للعمل معه !

ولا تظن أن هذا المثال الفريد في باب ، فكثير مثله يجري كل يوم في كل مصلحة وفي كل عمل ، يختار التمل من هذا المعهد دون سواه ، لأن رؤسائه منه ، أو لأنه ينتمي إلى طائفة قد أصبحت طبقة يجب أن يعمل حسابها ولا يستغنى عنها ،

والتخصص إلى أن يفرق طلابه على الأقسام ونشأت « عصبية قسمة » ، إذا صح هذا التعبير ، ورأينا هؤلاء الطلاب إذا تخرجوا ، ألفوا ما يشبه النقابات تضم أبناء قسمهم ، بل ورأينا أنه إذا انضم الحظ لواحد منهم وجعله من أصحاب الحل والعقد في ناحية من النواحي ، ضاقت نفسه بأبناء غير قسمه ، وإن كانوا من معهده ، ورأينا أكثر من ذلك أن رجال العلم والتعليم في هذا المعهد أو ذاك ، قد يضطرم قانون التعاون إلى أن يجتمع بعضهم وهم من أقسام شتى للقيام بعمل علمي أو اختبار طالبات أو طلاب فينتصر كل إلى قسمه وأبنائه ، وإن كان ذلك تحيف على العدالة الواجبة في كل شيء وفي العلم ومعاهده بنوع خاص

نعم ، إن هذه الهيئات والجماعات قد تكون لها وظيفة نفاية فتدافع عن مصالح أبناء المهنة الواحدة ، وتحافظ لهم على حقوقهم ، وتستغل الفرد لمصلحة الجماعة كلها ، وتجنّد الجماعة لمصلحة الفرد من أبنائها ؛ ولكن مارأيك في أن المهنة الواحدة تنوزعها نقابات مختلفة ، وتتنازعها أمحادات شتى ، تسمى كل واحدة منها باسم « معهد » ، أو حتى قسم من معهد ، فأنت تجد اتحاد خريجي الجامعة ، وتجد اتحاد خريجي كلية الآداب ، بل واتحاد خريجي قسم اللغة الإنجليزية ، بل إن جماعة المعهد الواحد تنقسم بدورها إلى شعب ، من ذلك أن لخريجي دار العلوم أكثر من ناد واحد في مدينة القاهرة وحدها

وهذه العصبية تؤرق الحكام وتضنيهم ، وقد أزعجت الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأزعجت وزير المعارف ، وأزعجت وزير المالية ووزير الداخلية وسائر الوزراء ، واضطرت أول الأمر إلى إقفال هذا المعهد أو ذاك أمداً ليس بالقليل ، والتلويح بالعودة هؤلاء ، والنذر لأولئك ، فيرضى قوم وينضب آخرون ، وتبقى العصبية المهدية على حالها تنخر في عظام هذا المجتمع الناشئ التطلع وتفسد ما بين المعلمين ، وكان الأحجب بهم وبرؤسائهم أن يجتمعوا على مكافحة الفقر والجهل والمرض ، وهم الذين أدبتهم الأمة للاضطلاع بهذه المهمة ، لا لأن يحارب بعضهم بعضاً

والملاج الوحيد لهذه العصبية المنكودة هو أن نأخذ اللهاء

ولسنا نبالغ في تجسيم هذه العصبية المهدية وبيان أثرها مبالغة التمسكين المهديين في امتداح أنفسهم وطوائفهم ومعاهدهم ، والحط من قدر الآخرين وطوائفهم ومعاهدهم ، وذكر العنت الذي يقع عليهم دون سائر الناس

الم يبلغك الخلاف الذي قام بين خريجي المعلمين العليا ومعهد التربية ، والانقسام لهؤلاء مرة ، ولأولئك أخرى ، لأن مقاليد الأمور كانت في يد هؤلاء مرة وأولئك مرة أخرى ؟ !

الم يبلغك الخلاف الذي قام قبل ذلك بين هؤلاء المعلمين وبين الجامعيين والذي لا زال له آثاره حتى اليوم ؟

الم يبلغك الخلاف الذي قام بين بعض الجامعيين وأبناء دار العلوم ، وما له من أثر وييل إلى يومنا هذا ؟ !

الم نقرأ عن هذه الحرب الشواء بين أبناء الأزهر وأبناء دار العلوم ، والتي اتخذت لنفسها صورا وأشكالا لم يكن الشعب المصري يألفها من قبل ؟

اختر لنفسك أي مدرسة من مدارس هذا القطر من الإسكندرية إلى أسوان للبنين كانت أو للبنات ، واختبر حالة المعلمين والمعلمات ، فسيأخذك الدهش من كل جانب لأنك ترى هؤلاء الذين يعيشون للعلم وللتعليم أحزاباً متنافرة ، لا شيء إلا لأن كل فريق من معهد ، وقد أدت سياسة الارتجال وأنصاف الحلول والإصلاح المؤقت واسترضاء الطوائف إلى أن يتخرج المعلمون في المدرسة الواحدة من أكثر من خمس معاهد لا يدعو التخصص وحده إلى هذا التفريق فيما بينها ، فأنت واجد مدرسي اللغة العربية التخرجين في الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب ، وأنت واجد في المدرسة نفسها أبناء معهد التربية العالي والابتدائي معاً ، إلى جانب خريجي المعلمين العليا ، وهم جميعاً يدرسون مجموعة واحدة من المواد . وكذلك الحال في مدارس البنات ، فخرجات السنية والمأهدة الإضافية إلى جانب الجامعيات وخرجات معهد التربية الابتدائي ، وهكذا ... ولكل فريق من هؤلاء رؤساء يذكرون في عصبية ويساعدونه في وجوده وارتفاعه

وأفرخت هذه العصبية عصبية أخرى من نوعها وإن كانت أسنر وأقل شأناً ، فإن المعهد الواحد قد ألزمه قانون تقسيم العمل